تراث الإنسانية

NYROUF

رسالة الغفران للمعرى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

د. عائشة عبد الرحمن

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

الانجاز الطباعى والفنى	وزارة الإعلام
محمود الهندى	وزارة التعليم
مراد نسيم	وزارة الحكم المحلى
احمد صليحة	المجلس الأعلى للشباب والرياضة

المشرف العام

د . سمير سرحان

رسالة الغفران
لأبى العلاء المعرى
د. عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ»

صاحب الرسالة

أبو العلاء ، أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى التنوخى .

ولد بمعرة النعمان ، من أعمال حلب ، فى مغرب الشمس لثلاث ليال بقين من ربيع الأول عام ٣٦٣ هـ . وينتمى الى قبيلة تنوخ « وهى من أكثر العرب مناقب وحسبا ومن أعظمها مفاخر وأدبا » وقد نزحت جماعة منها الى المعرة من قديم ، فكان منهم بنو سليمان ، أجداد أبى العلاء ، وفيهم يقول « ابن العديم » مؤرخ حلب : « وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها ، من بنى سليمان بن داود بن المطهر » .

وأصيب أبو العلاء بالجدرى ، وهو فى الرابعة من عمره ، ففقد بصره . وقد حفظ القرآن صغيراً ، وقرأه

بالروايات على جماعة من الشيوخ « ممن يشار اليهم فى القراءات » ثم درس اللغة والنحو على أبيه وعدد من أئمة النحاة ، كما درس علوم الاسلام ، « فكان عجبا فى الذكاء المفرط والحافظة النادرة والاطلاع الباهر على اللغة وشواهدها » ٠

ولقد حاول فى صباه أن يتجلد لمحنته ، ويتحدى ظروفه القاسية ، فشوهد فى شبابه « يلعب النرد والشطرنج ، ويأخذ فى صنوف اللهو والجد » ومات أبوه ، وهو فى أشد الحاجة ، اليه فأوجعه المصاب ، لكنه طوى جرحه فى أعماقه ومضى يناضل متجلداً ٠ ثم شد رحاله الى بغداد سنة ٣٩٩ هـ بعد أن ظفر بشهرة اقليمية واسعة فى حلب والشام ٠ وكان فى عزمه أن يخوض معركة الوجود فى العاصمة الكبرى للدولة الاسلامية ، مسلحاً بذكائه وعلمه وطموحه ، لكنه صدم هناك ، حين وجد المعركة تحتاج الى أسلحة أخرى لا يملكها ، من الدهاء والمكر والحيلة والنفاق ٠

وكانت رحلة حاسمة ، فصلت ما بين شطرين متميزين من حياته : ذهب الى بغداد متفتح الأمل بعيد الطموح ، وانسحب منها بعد عام وبعض عام ، منكسر القلب مهزوما ، فلزم بيته فى المعرة ، وقد صمم على أن يعتزل

الدنيا والناس . وعاش رهين محبسيه ـ العمى والعزلة ـ نحو نصف قرن ، يقاوم حبه للدنيا فى بسالة ، ويروض بشرته على أقسى ضروب الحرمان ، حتى أراحه الموت فى عام ٤٤٩هـ من محنة الوجود وهم المكابدة .

ومكانة أبى العلاء فى أدبنا : أنه الأديب الحر الذى وجد نفسه ، وباع الدنيا لتسلم له كرامته وحرية فنه . وقد حمل أمانة الكلمة ، عدواً للزيف والنفاق والتضليل ، والبغى والظلم والاستبداد .

وترك تراثا ضخما من مصنفاته الأدبية واللغوية ، أحصى « ياقوت » منها نحو سبعين مصنفا ، وعد «القفطى» منها خمسة وخمسين ، عدا ما أحرق منها وما تلف وضاع . وقال ابن حجر : « وتصانيفه فى اللغة والأدب ، أكثر من مائتى مجلد » .

ومما بقى لنا من آثاره : ديوان سقط الزند ، واللزوميات ، ورسالة الغفران ، ورسالة الملائكة (١) ،

---

(١) طبعت مقدمتها عام ١٩٣٢ عن مخطوط بليدن ، بعناية كراتشكوفسكى . ونشرت كاملة فى دمشق سنة ١٩٤٤ عن مخطوط بالظاهرية . بعناية محمد سليم الجندى .

والفصول والغايات (٢) ، ومجموعة من رسائله (٣) ، وملقى السبيل (٤) ، وعبث الوليد .

* * *

الرسالة

(١)

وتنفرد « رسالة الغفران » بمكانة خاصة ، نقلتها من نطاق الأدب العربى الى النطاق العالمى .

وحتى القرن الثالث عشر الهجرى ، لم يكن المعروف عنها يتجاوز كلمات قصارا ذكرها مؤرخوه فى ترجمته . وقد اكتفى « القفطى » فى انباه الرواة ، باثباتها فى فهرست مصنفاته بين « رسائله الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة » وكذلك فعل « سبط ابن الجوزى » فى مرآة الزمان فذكرها بين « المصنفات الحسان لأبى العلاء » و « أبو القاسم الكلاعى المغربى » الذى أشار اليها فى احكام صنعة الكلام ، بين رسائله « التى لها بال » .

---

(٢) طبع جزء منه فى القاهرة ؛ تحقيق محمد حسن زناتى .

(٣) طبعت فى أكسفورد سنة ١٨٩٨ بعناية مرجليوث .

(٤) نشرة الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، عن مخطوط بالاسكوريال فى مجلة المقتبس ، السنة السابعة .

وآخرون تحدثوا عنها فى بضع جمل : فنقل « ياقوت الحموى » فى معجم الأدباء ، أبياتا منها قال أبو العلاء انها لرجل من يهود خيبر يعرف بسمير ابن أدكن (٥) ، ثم عقب عليها « ياقوت » بقوله :

« وهذا يشبه أن يكون شعره ، قد نحله هذا اليهودى ! أو أن ايراده لمثل هذا واستلذاذه به ، من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه » .

و « الذهبى » فى تاريخ الاسلام ، قال فى ترجمته لأبى العلاء : « له رسالة الغفران فى مجلد ، قد احتوت على مزدكة واستخفاف ، وفيها أدب كثير » .

و « الصفدى » فى الغيث المسجم ، أشار الى الفصل الذى أملاه أبو العلاء فى بيتى النمر بن تولب » فقال : « ومن وقف على كلام أبى العلاء فى رسالة الغفران فى ذلك البيتين ، وكيف غير القوافى منها ونزلها على سائر حروف المعجم خلا حرف الطاء ، علم تمكن أبى العلاء من الأدب واطلاعة على اللغة » (٦) .

---

(٥) راجع هذه الأبيات فى رسالة الغفران : تحقيق بنت الشاطىء . ص ٤٤١ من الطبعة ٣ ذخائر .

(٦) راجع هذا الفصل عن بيتى النمر ، وصنيع أبى العلاء فى تغيير قافيتهما متتبعا حروف الهجاء ، ص ١٥٤ من الطبعة ٣ ذخائر . ويلاحظ أن نسختنا لا تخلو من حرف الطاء ، كما ذكر الصفدى

و « ابن العديم » فى الانصاف والتحرى ، ذكر رسالة الغفران فى تصانيف أبى العلاء ثم قال : « .. وكتبها الى على بن منصور الحلبى المعروف بدواخلة ، جوابا عن رسالة كتبها اليه ، يعتب عليه على بن منصور فى أنه بلغه عنه أنه ذكر له فقال : هو الذى هجا أبا القاسم المغربى . فكتب اليه رسالة الغفران جوابا عنها » .

ومن مجموع هذا كله ، نخرج بأن المعروف عن الغفران ، الى القرن الثالث عشر ، هو أنها من رسائل أبى العلاء الحسان ، الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة ، فى مجلد واحد ، وقد احتوت على مزدكة واستخفاف ، وفيها ما هو من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه ، وما يدل على تمكنه من الأدب واطلاعه على اللغة . وقد كتبها الى على بن منصور الحلبى المعروف بدوخلة ، جوابا عن رسالة كتبها اليه ، يعتب عليه فيها أنه ذكر هجاءه لأبى القاسم ابن المغربى .

وفى القرن التاسع عشر ، بدأ اسم رسالة الغفران يتردد فى الأوساط الأدبية بأوربا ، مقترنا بالكوميديا الالهية لدانتى ، على سبيل لمح شبه بينهما أولا ، ثم على سبيل المقارنة المنتهية الى أن دانتى متأثر بأبى العلاء ، وقد يكون قلده وأخذ عنه !

لكن نص الرسالة لم يعرف على صورة ما ، حتى

شهر يوليو عام ١٨٩٩ ، حين نشر المستشرق الانجليزى « نيكلسون » فى « المجلة الآسيوية الملكية : J.R.A.S. » أنه ظفر بمخطوطات عربية ، أهمها رسالة الغفران ، كانت فى حوزة المستشرق شكسبير J. Shakespeare ثم قدم فى عام ١٩٠٠ ، وصفا للمخطوط ، وترجمة ملخصة للقسم الأول من الرسالة ، مع الأصل العربى لكثير من أشعاره وفقراته . وفى عام ١٩٠٢ ، نشر نيكلسون ملخص القسم الثانى مترجما ، مع الأصل العربى .

وكان ما نشره نيكلسون ، هو النص الذى رجع اليه المستشرق الاسبانى ، القس « ميجويل أسين بلاسيوس : M. Asin Placios » فى دراسته لرسالة الغفران مع أصول اسلامية غيرها ، وقد نشر هذه الدراسة بالاسبانية فى مدريد عام ١٩١٩ بعنوان : La Escatologia Musulmana en la Divina Comedia وترجمة سندر لاند H. Sunderland الى الانجليزية ، « Islam and the Divine Comedy » وطبع فى لندن عام ١٩٢٦ .

وفى هذا الكتاب ، قرر بلاسيوس ، بعد دراسة واسعة متخصصة استغرقت ربع قرن : « أن أصولا اسلامية ، من بينها رسالة الغفران ، قد كونت أسس الكوميديا الالهية » . وقد ترجم بلاسيوس فصولا من الغفران ، قابلها على نصوص من الكوميديا الالهية .

وأحدث الكتاب دويا فى العالم الأوربى ، وأخذت رسالة الغفران من ذلك الحين ، مكانها فى دراسات المستشرقين ، وتتابعت البحوث والمقالات الخاصة بها ، تأييدا لنظرية أسين بلاسيوس أو معارضة لها . وفى عام ١٩٤٩ نشرت مكتبة الرسل بالفاتيكان فى روما ، كتابا للمستشرق الايطالى « تشيروللى » عنوانه !

« كتاب السلم – يعنى المعراج – ومسألة المنابع العربية الاسبانية للكوميديا الالهية :

« Il Libro della Scala E La Quistione della Fonti Arabo-Spagnole della Divina Commedia. »

وفى هذا الكتاب ، يؤيد « تشيروللى » نظرية بلاسيوس بنشر نصوص اسلامية وجدت مترجمة الى اللاتينية والفرنسية فى المكتبة الأوربية قبل دانتى ، وذيل هذه النصوص بفصل خاص عن « دانتى والاسلام » فيه كلام عن تأثر دانتى بالغفران ، والمعراج ، وغيرهما من الآثار الاسلامية التى نقلت الى أوربا عن طريق اسبانيا .

* * *

وكانت لهذه الشهرة العالمية للغفران ، صداها فى الشرق ، وكما حدث فى أوربا ، بدأ اسم الرسالة يتردد هنا مقترنا بكوميديا دانتى على سبيل التشبيه ، ثم على سبيل المقارنة والأخذ والاقتباس .

ففى عام ١٩٠٤ ظهرت ترجمة البستانى لالياذة هومير ، وفى مقدمتها يقول : « وان من أحسن ملاحم المولدين ، ملحمة نثرية جمع فيها صاحبها شتيت المعانى وأوغل فى التصور حتى سبق دانتى الشاعر الايطالى ، وملتن الانجليزى ، الى بعض تخيلاتها ، ألا وهى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى » ٠

ثم نشر جورجى زيدان كتاب تاريخ الآداب العربية ، وفيه يقول عن أبى العلاء فى الغفران : « فتخيل رجلا صعد الى السماء ووصف ما شاهده هناك ، كما فعل دانتى شاعر الطليان فى الرواية الالهية ، وما فعل ملتن الانجليزى فى الفردوس المفقود ، لكن أبا العلاء سبقهما ببضعة قرون ، فلا بدع اذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه ٠ واقدمها دانتى ، لم يظهر الا بعد احتكاك الافرنج بالمسلمين ، والايطاليون أسبق الافرنج الى ذلك » (٧) ٠

وقال الدكتور طه حسين فى رسالته عن أبى العلاء : « والفرنج يشبهونها ـ رسالة الغفران ـ بكتاب دانتى الطليانى الذى سماه La Comedia Dèvina وكتاب ملتن الانجليزى الذى سماه الجنة الضائعة » (٨) ٠

---

(٧) جورجى زيدان : تاريخ الآداب العربية ٢ـ٣٠٥ ط دار الهلال ١٩٥٧ ٠

(٨) تجديد ذكرى أبى العلاء : ص ٢٦٢ ٠

وقرر الأستاذ محمد كرد على : « أن أعمى المعرة كان معلما لنابغة ايطالية فى الشعر والخيال » (٩) ومن بعده قال الميمنى : « ... وما ملتن الانجليزى صاحب الفردوس الغابر الا من الأتباع .. ومثله شاعر الطليان دانتى فى كتابه ـ الكوميديا الالهية ـ بيد أنا أهل المشرق لم نحتفظ بمآثر أسلافنا ولم نؤمنها من بوائق الضياع » (١٠) .

★ ★ ★

وانتصف القرن العشرون ، ولم نضف الى ذلك القليل الذى كتبه الأقدمون ، عن رسالة الغفران ، الا هذه الاشارات السريعة والأحكام المرسلة ، دون أن تظهر فى الميدان دراسة عربية متخصصة ، للرسالة التى أثارت كل ذلك الاهتمام ، وقيل عنها فيما قبل ، ان صاحبها كان معلما لنابغة ايطاليا ، وان دانتى وملتن كانا له من الأتباع .

(٩) انظر مقدمة كرد على ، لترجمة حجيم دانتى بقلم أمين شعر : ص ١٥ ط القدس ١٩٣٨ .

(١٠) ص ٢ من رسالة الملائكة ، فى ذيل كتاب « أبو العلاء وما اليه » للميمنى . ط السلفية ١٣٤٥ .

(٢)

وماذا عن نص رسالة الغفران ؟

فى عام ١٩٠٣ ـ وهو العام التالى لما نشره نيكلسون من نسخته ـ نشرت مكتبة أمين هندية بالقاهرة رسالة الغفران ، فى طبعة غير محققة . وجاء على غلافها أنها نقلت عن نسختين خطيتين بدار الكتب المصرية ، على حين ذيلت الطبعة بخاتمة كتبها الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، ونص فيها على أن هذه الطبعة منقولة من نسخة تيمور . وظهر بعد البحث أن فى دار الكتب أربع نسخ خطية للغفران ، منها نسختان بمكتبة تيمور .

وقد كانت طبعة هندية ، هى التى بين أيدى الدارسين العرب ، ومنهم الأستاذ الدكتور طه حسين الذى كتب عن الغفران بضع فقرات ، فى رسالته للدكتوراه . ثم نشرت دار المعارف كتابا فى ٦٩٣ صفحة من القطع الكبير ، بعنوان « رسالة الغفران » شرح المرحوم كامل كيلانى . ونص الغفران فيه محرف ومبتور ، وقد أضيف اليه ما يقرب من ٤٠٠ صفحة ، ليست من الغفران أصلا ، وانما هى مختارات من آثار أخرى لأبى العلاء .

وكنا نقرأ النص فى طبعة هندية أو المجلة الآسيوية الملكية ، فيتعثر فى أيدينا ممزق السياق غامض الاشارات مبهم الدلالة ، فصدقنا ما قيل عن تعقيده والغازه ، وأن

أبا العلاء قصد عمدا الى أن يقيم بيننا وبين « الغفران » الحجب والارصاد ، كيلا نطلع على خفى سره وباطن أمره !

* * *

وحين ظهرت الحاجة الى تحقيق نص رسالة الغفران ليكون أساسا لدراستها دراسة علمية منهجية ، بحثنا عن النسخ الخطية للرسالة ، فوجدنا أربعاً منها فى دار الكتب بالقاهرة ، ونسخة خامسة كانت مدفونة فى مكتبة سوهاج ، مكتوب عليها : « فى علم الأدب ، مجهول اسمه واسم المؤلف » كما عثرنا بعد ذلك على نسخة سادسة مدفونة فى مكتبة جامعة الاسكندرية ، بعنوان : « كتاب فى الأدب نادر الوجود جدا ، لعلى ابن منصور ، ابن القارح رحمه الله » .

وبفحص هذه النسخ الست ، لم نجد بينها نسخة أصلية .

وكان المستشرق الألمانى « بروكلمان » قد أشار فى ترجمته لأبى العلاء بكتاب « تاريخ الأدب العربى » الى وجود نسخة خطية من الغفران فى مكتبة كوبريللى زاده باستانبول . فلما ظفرنا بصورة منها ـ على ميكروفيلم ـ وفحصناها ، الفيناها نسخة أصلية ، متصلة النسب بأبى

العلاء عن طريق تلميذه الخطيب التبريزى . وبمقابلة هذه النسخة على كل ما عثرنا عليه من مخطوطات الغفران ، وجدناها أصلا لها .

وعلى نسخة كوبريللى اعتمدنا فى توثيق النص وتحقيقه ، ولم نستطع مع ذلك أن نفهم رسالة الغفران فى نصها المحقق ، الا بمقابلتها على « رسالة ابن القارح » ، مفتاح فهمها .

واتضح لنا أن كل ما نشر عن رسالة الغفران فى الغرب أو الشرق ، لم يعتمد على أصل : فالمستشرقون رجعوا الى ما نشره نيكلسون منها ، وقد أخطأه فهم النص : لما أعوزه من فقه أسرار العربية ، ولأن رسالة ابن القارح لم تكن بين يديه وهو يقرأ الغفران ، بل أنه جهل شخصية ابن القارح ، فظن أنه « أبو منصور الديلمى ، وكان أبوه جنديا فى خدمة سيف الدولة » .
. J.R.A.S. 1902/78

وكذلك قرئت الرسالة فى الشرق ، فى مطبعة سنقيمة لا أثر فيها لتحقيق أو توثيق ، وبمعزل عن رسائل ابن القارح .

وقد نشر النص المحقق للغفران فى سلسلة الذخائر عام ١٩٥٠ ، وأعيد طبعه سنة ١٩٥٧ مرفقا بنص محقق لرسالة ابن القارح ، ثم نشرت منه طبعة ثالثة سنة ١٩٦٣ .

وأتاح لنا النص المحقق ، أن ندرس رسالة الغفران دراسة علمية متخصصة نالت درجة الدكتوراه فى الآداب من جامعة القاهرة ، ونشرتها دار المعارف بالقاهرة فى عام ١٩٥٣ ، ثم فى عام ١٩٦٢ . كما نشر « الدكتور أمجد الطرابلسى » دراسة عن « النقد واللغة فى رسالة الغفران » طبعت بدمشق عام ١٩٥١ .

★ ★ ★

(٣)

ونحتاج اليوم قبل أن نقدم موجزا لرسالة الغفران ، الى أن نسوق بين يديه اضاءة لما حول النص ، من ظروف الزمان والمكان ، وحال أبى العلاء عندما تلقى رسالة ابن القارح وأملى رده عليها .

رسالة الغفران أمليت فى آخريات الربع الأول من القرن الخامس الهجرى ، فهى من آثار أبى العلاء فى الشطر الثانى من حياته . أملاها فى صميم عزلته بمعرة النعمان ، وقد بلغ الستين من عمره ، ومضى على عودته من بغداد مهزوما مهيض الجناح ، نحو ربع قرن من الزمان ، انطوى فيه على نفسه محزونا ، يروضها على الصبر والاحتمال ، ويغريها براحة اليأس بعد أن تعب من الدنيا .

وقد أنضجته هذه السنون الطوال ، وأرهفت العزلة حسه ووجدانه ، وأوغل فى النفاذ الى أعماق نفسه ، فانكشف له المطوى من همومه وأشواقه وجراحه لطول ما أصغى الى نبض وجدانه ، وتمزقت حجب الوهم والمداراة ، فاذا راحة اليأس قد عزت عليه بعد أن عزت عليه قبلها نعمة الأمل ، واذا الانصراف النفسى عن الدنيا بعيد المنال ..

وكان وهو يمليها ، شيخا قطع مراحل الصبا والشباب والكهولة ، وأشرف على الشوط الأخير من رحلة الدنيا ، فاتجهت نفسه الى التأمل الطويل فى مصير الانسان .

أما لماذا أملاها ؟ فظاهر الأمر أنها كتبت ردا على رسالة بعث بها اليه أديب حلبى من معاصريه . وهذا يقتضى أن نعرف الأسباب التى دفعت ابن القارح الى كتابة رسالته . و « ابن العديم » قد ذكر سببا منها ، هو ما بلغه من أن أبا العلاء قال ، لما ذكر له ابن القارح : هذا الذى هجا أبا القاسم ابن المغربى .

ونقرأ « رسالة ابن القارح » فتزيد هذا الموقف بيانا ، وتقدم لنا سببين ظاهرين :

أولهما : أن « أبا الفرج الزهرجى : كاتب نصر

الدولة » كان قد كتب رسالة الى أبى العلاء ، وسأل ابن القارح ايصالها اليه . فسرق عديله رحلا له ، فيه هذه الرسالة ، فوجب الاعتذار عن ضياعها .

والثانى : أن ابن القارح سمع أنه ذكر لأبى العلاء ، فلم يعرفه الا بهجائه لأبى القاسم ابن الوزير المغربى . وابن القارح قد كان صنيعة آل المغربى ، وطالما غمروه ببرهم ونعمتهم حين كانت الدنيا لهم . فهجاؤه أبا القاسم ، بعد أن دارت الدنيا عليهم ، ظاهرة غدر وجحود ، تنم عن لؤم النفس وشر الطباع . وقد فطن ابن القارح الى ما تدل عليه عبارة أبى العلاء ، عن سوء رأيه فيه ، فكتب رسالته يبرر هجاءه لأبى القاسم ، ويعبر عن ارتياعه من أن يستشر أبو العلاء طبعه ، فيقول :

« بلغنى عن مولاى الشيخ أدام الله تأييده ، أنه قال وقد ذكرت له : أعرفه خبرا هو الذى هجا أبا القاسم على بن الحسين المغربى ! فذلك منه ـ أدام الله عزه ـ رائع لى ، خوفاً أن يستشر طبعى وأن يتصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر » .

وفى ضوء هذا نفهم لم استهل أبو العلاء رده على ابن القارح ، بمقدمة غريبة سيطر عليها جو الحيات والسم والسواد ـ على ما سنشير اليه بعد ـ كما نفهم

ما فى القسم الثانى من الرسالة ، من فصول ساخرة عن النفاق ، وعن توبة ابن القارح وحججه الخمس !

وتعطينا رسالة ابن القارح ، سببا آخر لكتابتها . فمنها نعلم أن الرجل بعد أن جاوز السبعين من عمره ، وتعب من الرحلة والسعى والنضال ، أحب أن يريح شيخوخته بالاستقرار فى بلده « حلب » . ومن ثم حرص على أن يتصل الود بينه وبين شيخ المعرة : أديب العصر وامام العربية فى الشام . ولم يكن بين الاثنين سابق تعارف أو لقاء . فأحب ابن القارح أن يقدم نفسه الى شيخ المعرة ، فى رسالة اخوانية مطولة ، يبدو فيها الحرص على الاعلان عن بضاعته من اللغة والأخبار ، ومحفوظه من الأشعار ، والتحدث عمن لقى من أعلام العصر وشيوخ العربية .

وذلك أيضا مما يفسر لنا حرص أبى العلاء ، على التفنن فى أماليه اللغوية والأدبية ، جريا على عادة أدباء عصره فى رسائلهم الاخوانية التى تجرى مجرى الكتب المصنفة ، وردا على ابن القارح بما يبهره ويرده الى شىء من التواضع !

على أنه لم يكد يبدأ املاء جوابه ، حتى انصرف عن رسالة صاحبه فى رؤيا عجيبة من رؤى اليقظة انطلق

به فيها الى عالم آخر تمثل فيه جنته وناره ، ثم آب من رؤياه ، ليستأذف الرد على ما فى رسالة ابن القارح .

(٥)

والرسالة ـ على هذا ـ تتكون من مقدمة وقسمين رئيسيين :

والمقدمة فى جملتها ، من الأمالى اللغوية والأدبية ، وقد ساقها أبو العلاء بأسلوب الألغاز وهو فن بديعى ولع به أصحاب الصنعة الأدبية فى عصر أبى العلاء .

ففى مستهل الرسالة ، أراد أبو العلاء أن يعرب عما يضمر قلبه من الود لابن القارح ، فاختار أن يلغز عن ذلك بأن الله يعلم أن فى مسكنه حماطة ـ وهى شجرة تألفها الحيات ـ تضمر له من الود ما لا تضمره أم لولدها ، سواء أكانت من ذوات السم أو من غيرهن !

ومضى فالغز عن القلب بالحضب ـ وهو ذكر الحيات ـ وبالأسود وهو ثعبان ! مفسرا اللغز فى كل مرة ، ومعقبا عليه بحديث لغوى وشواهد من الشعر ، فى الحماطة والحضب والأسود وأبى الأسود ، وسودة وسوادة والأسودين !

ولا أذكر أن أحدا من الدارسين قد التفت قبل اليوم ،

الى هذه المقدمة الثعبانية السوداء ! وانما شغلنا بتفسير ألفاظها ، والاستدلال بها على براعة أبى العلاء وثراء معجمه اللغوى ، عن فهم عالمه النفسى وهو يلقى صاحبه بمثل هذه التحية التى لا نعرف لها نظيرا فى الرسائل الاخوانية · والذى أطمئن اليه ، هو أن أبا العلاء أصغى الى رسالة ابن القارح ، وهو ضيق النفس بما فيها من ملق ونفاق وخبث ، مشمئز من اسرافه فى ذم أبى القاسم المغربى تبريرا لهجائه بعد أن تنكرت له الدنيا · فلما بدأ يملى رده ، صدر فيه عن وجدان منفعل بهذا الاشمئزاز والضيق ، فجاء جو المقدمة مشحونا بالحيات فى نعومتها السامة ، وفى تلويها وتسللها تبديلها لجلودها مع دورة الفصول ، ثم بهذا السواد الذى شارك السم والحيات فى السيطرة على جو المقدمة ·

ويبدأ القسم الأول من الغفران ، بخبر عن وصول رسالة ابن القارح ، المفتتحة بتمجيد الله ، ومن هذا التمجيد ، كان المنطلق الى العالم الآخر ، ففى قدرته تعالى أن يجعل كل حرف من كلمات ابن القارح فى تمجيده ، معراجا من نور يعرج بالشيخ ـ ابن القارح ـ الى عالى السماوات · وقد غرس له بفضل هذا الكلم الطيب ، شجر فى الجنة ، يجلس الشيخ فى ظله مع من اصطفى من ندامى الفردوس ، وكلهم من علماء اللغة ورواة

الشعر (١١) . وهم فى المجلس يتذاكرون ويتناشدون الأشعار ، والولدان المخلدون قيام وقعود فى خدمتهم ، والكئوس من الفضة والذهب ، والأباريق من صنوف الجوهر ، يغترفون بها الشراب من أنهار خمر الجنة وعسلها المصفى . واذ يذكر الندامى ما قال شعراء الدنيا الفانية ، فى الخمر ونشوتها وكئوسها وأباريقها ، يجىء ذكر الأعشى ، فيتمنون لو أنه كان بنهم يطربهم بشعره . فلا يكادون يعربون عن هذه الأمنية ، حتى يمثل أمامهم « الأعشى » شابا أحور العينين ! ويعجبون لوجوده فى الجنة وقد مات كافرا وأقر على نفسه بالفاحشة ، ويسألونه : بم غفر له ؟ فيجيب بأن قصيدته الدالية التى نظمها فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد شفعت له فأدخل الجنة على ألا يشرب خمرا ، لأنه كان فى طريقه الى الرسول ، ليسلم وينشده القصيدة ، فصدته قريش ، وحبه للخمر !

وينظر « ابن القارح » فى رياض الجنة فيرى قصرين منيفين ، عليهما لافتتان باسم عبيد بن الأبرص وزهير ابن أبى سلمى ، واذ يسألهما : بم غفر لهما وقد ماتا فى الجاهلية ؟ يجيب عبيد أنه نال ثواب بيته :

---

(١١) هم : المبرد ، وابن دريد ، ويونس بن حبيب ، والأخفش ، وثعلب ، وسيبويه ، والكسائى ، وأبو عبيدة ، والاصمعى .

من يسـأل النـاس يحـرموه

وسـائل الله لا يخيب !

ويجيب زهير بأنه كان فى الدنيا ينفر من الباطل ، وقد رأى فيما يرى النائم حبلا نزل من السماء ، من تعلق به من سكان الأرض سلم . فعلم أن نبيا سوف يبعث ، وأمر أبناءه ، ان قام فيهم قائم يدعو الى عبادة الله ، فليطيعوه ، ثم انه القائل فى الجاهلية :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم

ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر ، فيوضع فى كتاب ، فيدخر

ليوم الحساب ، أو يعجل فينقم

ويسأل ابن القارح عبيد بن الأبرص عن « عدى بن زيد » فيدله عليه فيلقاه ويسأله : بم غفر له ؟ فيجيب انه كان على دين المسيح ، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يبعث محمد فلا بأس عليه ، وانما التبعة على من سجد للأصنام . ويستنشده الشيخ قصيدته الصادية :

أبلغ خليلى عبد هند فلا

زلت قريبا من سواد الخصوص

ويناقشه فى بعض ألفاظها ، لكن عديا يزهد فى هذه المناقشة اللغوية ، ويدعوه الى رحلة صيد ، فيشفق ابن القارح من ركوب الخيل ويذكر مصارع بعض من ركبوها ، فيبتسم « عدى » ضاحكا ، ويذكره بأن أهل الجنة لا يحيق بهم ضر ! ويركبان سابحين من خيل الجنة ، فيلقيان فى رحلتهما النابغتين : الذبيانى والجعدى ، يتحادثان أمام قصرين من الدر ! ويطول حديث الشيخ معهما فى مسائل تتعلق بشعرهما . ثم يلتئم جمع الشعراء والأدباء ، ويمر سرب من اوز الجنة ، ينتفضن فيصرن كواعب حسانا بأيديهن المزاهر وآلات الطرب ، ويسألهن الشيخ أن يصنعن لحنا بعد لحن فى شعر للنابغة الذبيانى ، فيأتين بالألحان المطلوبة ، ببراعة فذة ، ويفد على المجلس لبيد بن ربيعة ، ويخطر لهم غناء المغنيات بالفسطاط أو مدينة السلام ، بشعر للمخبل السعدى ، فتندفع المغنيات ـ من أوز الجنة ـ مستجيبات لما يطلبون .

لكن صفو المجلس لا يلبث أن يعكر بمنافرة بين الأعشى والجعدى ، يتبادلان فيها أفحش السباب ، ويثب الجعدى على الأعشى فيضربه بكوز من ذهب . ويكره الشيخ هذه الغربدة فيحذرهما من عاقبتها ، ثم يقترح أن يصحب كل واحد من أهل المجلس ، احدى هؤلاء القيان ، لتطربه فى منزله ، لكن لبيد بن ربيعة يذكرهم بأنهن كن فى الأصل سربا من الاوز ، ولا يأمن القوم لو صحبوهن

الى منازلهم ، أن يشيع الخبر فى الجنة فيسموا أزواج الأوز ! فتضرب الجماعة عن اقتسام القيان ..

ويمر « حسان بن ثابت » بالمجلس ، فيدعونه للمحادثة ويسألونه فى أبياته الخمرية التى جاءت فى قصيدته الهمزية ، فى مدح الرسول . ثم يفترق المجلس ويستأنف الشيخ طوافه فى رياض الجنة ، فيلقى خمسة نفر ليس فى أهل الجنة أجمل من عيونهم ! واذا هم عوران قيس : تمتم بن أبى بن مقبل ، وعمرو بن أحمد ، والشماخ ، والراعى النميرى ، وحميد بن ثور . ويطيل مساءلتهم فى شعرهم ، فيعجبون لحفظه ، وكأنه لم يشهد أهوال الحشر .

★ ★ ★

وهنا يروى « ابن القارح » مشهد الحشر ، وكيف شق عليه وأرهقه ، فخطر له أن يتقرب الى خزنة الفردوس بقصائد ينظمها فى مدحهم ، لعلهم يعجلون بادخاله الجنة ! غير أنهم لم يحفلوا بهذا الشعر ، وسألوه أن يفصح عن رغبته . فلما فعل ، أنكروا عليه أن يتصور أن يأذنوا له فى دخول الجنة بغير اذن من رب العزة ! وينصح له أحدهم ـ وقد عرف أنه من أمة العرب ـ أن يستعين على مطلبه بنبى العرب . فما زال الشيخ يتوسل بآل البيت حتى

تحدثوا فى أمره الى السيدة فاطمة الزهـراء وقالوا : « هذا ولى من أوليائنا قد صحت توبته ، ولا ريب أنه من أهل الجنة · وقد توسل بنا اليك صلى الله عليك فى أن يراح من أهوال الموقف » فقبلت السيدة رجاءهم وعهدت الى أخيها « ابراهيم » عليه السلام ، فى أن يصحبه الى أبيها الرسول · فسأل صلى الله عليه وسلم عن عمله فوجده من أهل الجنة ، فشفع له ·

وعبر الشيخ الصراط بمعونة جارية للسيدة فاطمة حتى وصل الى باب الجنة ، لكن خازنها « رضوان » أبى أن يأذن له بالدخول وليس معه جواز ! فالتمس منه الشيخ أن يعطيه ورقة من شجرة صفصاف ـ على باب الجنة من داخل ـ ليعود بها الى الموقف فيأخذ عليها جوازا ! ورفض « رضوان » أن يخرج شيئا من الجنة ، بغير اذن من العلى الأعلى ··

وفى غمرة يأسه وحيرته ، التفت اليه ابراهيم عليه السلام ـ وكان قد سبقه الى الجنة ـ فرآه متخلفا عنه ، فجذبه جذبة أدخلته الفردوس · وكان مقامه بالموقف ستة أشهر فقط من شهور الدنيا ، فلذلك لم تنزفه أهوال الحشر ولا نهكه تدقيق الحساب ، فبقى عليه حفظه ·

وبعد أن يقص الشيخ على عوران قيس ، قصة المحشر ، ويصف لهم لقاءه هناك بأبى على الفارسى وقد

أحاط به قوم من العرب يسألونه عن روايته لشعرهم ، ويحاسبونه على أخطائه أقسى حساب ، يستأنف محادثته الأدبية مع عوران قيس واحد بعد الآخر ، الى أن يعرض لهم « لبيد بن ربيعة » فيدعوهم الى منزله بالمقيسية ـ حى من أحياء الجنة ـ وهناك يرون ثلاثة بيوت ليس فى الجنة نظيرها بهاء وحسناً . ويخبرهم لبيد ، أنها أبيات ثلاثة من شعره ، قالها فى الدنيا :

ان تقوى ربنا خير نفل

وباذن الله ريثى والعجل

أحمد الله فلا ند له

بيديه الخير ، ما شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى

ناعم البال ، ومن شاء أضل

صيرها الله تعالى أبياتا فى الجنة ، بفضله وكرمه .

ويقيم ابن القارح مأدبة يدعو اليها كل من فى الجنة من الشعراء واللغويين والمتأدبين ، فتنحر الذبائح وتعد أشهى الأطعمة ، ويدعى من فى الجنة من مشهورى المغنين والمغنيات : أمثال الغريض ومعبد وابن مسجح وابن سريج والموصليين ، وبصبص ودنانير وعنان والجرادتين

وتدور مناقشة بين علماء اللغة حول اشتقاق اوزة ، يفترق المجلس بعدها ، ويخلو ابن القارح بحوريتين ، يلفته من احداهما طيب رائحة فمها ، ومن الأخرى بياضها الناصع ! فتخبره الأولى أنها كانت تدعى فى الدار الفانية « حمدونة الحلبية » وقد طلقها زوجها ـ بائع السقط ـ لرائحة كرهها من فيها .

وتخبره الأخرى أنها « توفيق السوداء » التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد ، وتخرج الكتب الى النساخ .

ويزهد ابن القارح فيهما بعد الذى سمعه منهما . ويسأل أحد الملائكة عن الحور العين اللواتي لم يكن من نساء الدنيا ! فيرشده الملك الى شجر الحور ، حيث يكسر احدى الثمار فتخرج منها حورية باهرة الجمال ، تخبره أنها كانت تمنى بلقائه قبل أن يخلق الله الدنيا ! فيسجد الشيخ لله شكرا ، ويخطر له وهو ساجد أن هذه الحورية ، على حسنها ، نحيلة ضاوية ، ثم لا يكاد يرفع رأسه من السجود ، حتى يرى لها ردفا ضخما يهوله ، فيقال له : أنت مخير فى تكوين هذه الجارية كما تشاء !

★ ★ ★

ويبدو للشيخ أن يطلع على أهل النار ، فيركب بعض دواب الجنة ويسير ، فيمر فى طريقه بجنة العفاريت

حيث يلقى شيخا من الجن المؤمنين ، يسمعه قصيدتين مطولتين من عجيب نظمه ! ثم يستأنف مسيره ، فيرى أسد القاصرة الذى افترس « عتبة بن أبى لهب » بعد أن دعا الرسول ربه أن يسلط عليه كلبا من كلابه . ومن بعد الأسد ، يقابل الذئب الذى كلم الأسلمى . ثم يرى فى أقصى الجنة بيتا حقيرا وفيه رجل ليس عليه نور أهل الجنة ! يخبره أنه « الحطيئة » وصل الى الشفاعة بالصدق فى قوله :

أبت شفتاى اليوم الا تكلما
بهجو فلا أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجها قبح الله خلقه
فقبح من وجه وقبح حامله !

ويعجب الشيخ ، لم لم يغفر له بقوله :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

فيجيب الحطيئة : سبقنى الى معناه الصالحون ، ونظمته ولم أعمل به ، فحرمت الجزاء عليه .

وبعد أن يسأله عن « الزبرقان بن بدر » يخلفه ويمضى ، فاذا هو بالخنساء قريبة المطلع الى النار ، تخبره أنها أحبت أن تنظر الى « صخر » فرأته كالجبل الشامخ ، والنار تضطرم فى رأسه ، وقد صح مزعمها فيه :

وان صخرا لتأتم الهداة به
كأنه علم فى رأسه نار

ويلقى ابن القارح فى النار ، ابليس اللعين ، ويدور بينهما حوار عنيف ، يسأل فيه ابليس عن « بشار » فاذا هو أمامهما يسام سوء العذاب ، لكن عذابه لم يصرف « ابن القارح » عن مساءلته فى أخبار دنياه ، ومناقشته فى شعره ، ويفعل مثل ذلك مع من لقى من شعراء النار : امرىء القيس ، وعنترة العبسى ، وعلقمة ابن عبدة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث اليشكرى ، وطرفة بن العبد ، وأوس بن حجر ، وأبى كبير الهذلى وصخر الغى ، والأخطل التغلبى ، ومهلهل ، والمرقشين والشنفرى ، وتابط شرا .

حتى اذا قضى من محاورتهم مأربه ، انطلق عائدا الى الجنة ، فمر فى طريقه الى منزله بأبينا آدم حيث سأله فى الشعر المنسوب اليه ، وفى لغة أهل الجنة ، ثم مر بروضة الحيات فسمع عجبا من رواية احدى الحيات للشعر وفقه حية أخرى بالقراءات وقد كانت تسكن

فى جدار بيت أبى الحسن البصرى ثم انتقلت منه الى بيت أبى عمرو بن العلاء ، ثم الى جوار حمـزة بن حبيب ، ففقهت قراءة القرآن !

وعرج فى طريقه على جنة الرجـز ، حيث قابـل منهم « الأغلب العجلى ، والعجاج ورؤبـة وأبا النجـم وحميد الأرقط وعذافر بن أوس وأبا نخيلة » وصارحهم برأيه فى الرجز ، وقرر أن مكانهم المتواضع فى الجنة ، على قدر منزلتهم الهابطة فى الشعر ، اذ الرجز أضعف القصيد !

وتنتهى الرحلة بوصول ابن القارح الى محله المشيد فى دار الخلود ·

وبانتهائها ينتهى القسم الأول من « رسالة الغفران »·

* * *

ويليه القسم الثانى ، وفيه يرد أبو العلاء على ما جاء فى رسالة « ابن القارح » اليه ، فقرة فقرة ، مستطردا خلال رده ، الى أمال لغوية وأدبية ، ومعترضا لقضايا نقدية وتاريخية هامة ، مما شغل أئمة العربية فى عصر الغفران وما قبله ·

وقد أطال أبو العلاء فى هذا الفصل ، الحديث عن النفاق والمنافقين ، وعن الزندقة والزنادیق ، تعليقا على ما تعرض له ابن القارح من أمرهم .

وأورد أبو العلاء نصوصا من شعرهم ومرويات من أخبارهم ، ثم استطرد يتحدث عن الفرق والمذاهب : الامامية والمعتزلة والأشاعرة والشيعة والكيسانية .. وهذا الحديث الطويل عن الزندقة ، كان موضع ريبة من مؤرخى أبى العلاء ، فذكر ياقوت « أن ايراده لمثل هذا الشعر واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه » وقال الذهبى عن الغفران : « وفيها مزدكة واستخفاف » وان كنا نرى فى رسالة « ابن القارح » ما يفسر الموقف .

(٦)

وبين قسمى الرسالة فرق واضح : فأولهما عمل فنى تبدو فيه شخصية أبى العلاء الأديب ، وقد كانت رحلته الى العالم الآخر ، هى التى شغلت الدارسين الأوربيين لما رأوا من ملامح الشبه بينها وبين الكوميديا الالهية .

وما تزال قضية تأثر دانتى بأبى العلاء موضع خلاف ، على أنه مهما يكن الرأى فيها ، فالذى لا شك فيه أن لرحلة أبى العلاء قيمتها الكبرى ، من حيث هى أثر

فنى مبتدع ، ولما تكشف لنا من عالمه النفسى فى تلك الرحلة من حياته : عالم أديب بشر ، ضرير مقيد محروم .

فجنة أبى العلاء ، أهلها اللغويون والشعراء ، ومن يقوم على خدمتهم من الولدان المخلدين ، والمغنين والمغنيات . وأبونا آدم جىء به ليسأل فى قضايا شعرية ولغوية ، والجن المؤمنون شعراء بارعون ، والحيات يروين الشعر ، وفيهن من لها علم بالقراءات . والشعراء يغفر لهم بأبيات قالوها من الشعر ، ومنازلهم فى الجنة ، حسب درجتهم فى الشعر ما بين رجز وقصيد . والقيان يغنين بمختارات من الشعر ، والراقصات يرقصن على المتنافرون ويتخاصم المتخاصمون فى الجنة حول مسائل نغمه وايقاعه . وحديث الندامى لغة وشعر ، ويتنافر لغوية ومرويات من الشعر . وما قاله شعراء الخمر واللهو فى الدنيا ، يعرض مشخصا - بفن تمثيلى - فيما يتمتع به أهل الجنة .

وجنة أبى العلاء جنة بشر ، عاش عمره مقيدا حبيسا يجاهد أهواء بشريته وأشواقها ، فلم يطق أن يتمثل جنته هادئة تنعم بالسكينة والسلام ، بل ملأها حركة وضجيجا ، ورقصا وغناء ، ونزهة وصيدا . ويعلو الصوت فيها حتى يصير صياحا وصخبا ، وتعنف الحركة

حتى تصير عربدة ، ويحتدم الحصـــام حتى يئول الى منافرة وعراك

وعلى أن هذه الحركة الحسية ، لا تكاد تقاس الى الحركة النفسية العنيفة التى تجيش بها نفوس أهل جنته ، فهم لا يبرأون من حنين وتشوق وانتظار ، وحذر واشفاق ، وعتاب واغراء ، ونشوة واشتهاء ، وغيظ وغضب ، وتعيير وسخرية ، وخيبة وقهر ..

وأبو العلاء الذى حرم على نفسه كل متع الدنيا ، حشد فى جنته كل ما خطر على باله وتمثلته بشريتـه المحرومة المكبوتة ، من صـنوف المتع الحسـية والمـلاذ المادية . وأسرف فى ذلك حتى جاء بهذه المتع مشخصـة ممثلة ! واللافت هنا أن أبا العلاء يحب ألا تخلو من ملامح دنيانا : فالقصور عليها لافتات بأسماء الشعراء ، ودخول الجنة لا سبيل اليه بغير جواز مكتوب ، وفى الجنة خيل لهواة الصيد ، وناقة لمن يشتهى أن يحلب اللبن ! والشيخ يأمر أن يكون بين طهاة مأدبته طهاة حلب ، ويشتهى أن يقدم له مع أشربة الجنة ، شراب الفقاع الذى كان الطوافون يدورون به فى طرقات الدنيا !

لا يحتاج الموعودون السعداء الى أن يعبروا عما يشتهون ، بل يكفى أحيانا أن تخطر لأحدهم الرغبـة ،

أو يهجس فى خلده الشوق ، فيجد ما اشتهى حاضرا ماثلا !

والجنة لن تكون جنة لأبى العلاء ، وفيها أعمى أو ذو عاهة : بل ليس يكفيه أن يرتد الأعمى بصيرا ، والأعشى أحور ، والأعور سليم العينين ، وانما يلتمس لكل من ابتلى بعاهة فى الدنيا ، أن يعوض عنها فى الآخرة تعويضا لا يقترحه الا المبتلى المحروم : فأحد أهل الجنه بصرا ، شاعر شكا من ضعف بصره فى الدنيا فقال :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة

وحسبك داء أن تصح وتسلما !

وأنضرهم شبابا ، شاعر شاخ فى الدنيا حتى سئم تكاليف الحياة . وأجملهم عيونا عوران قيس ! وأطيب نساء الجنة رائحة فم ، امرأة طلقها زوجها بائع السقط لأنه كره رائحة فمها ، وانصعهن بياضا جارية سوداء كانت تخدم فى دار العلم ببغداد !

وفى المحشر ، ترى عراكا بين أبى على الفارسى وجماعة من العرب ، لأنه أخطأ فى رواية شعر لهم . ونرى ابن القارح يحاول التقرب الى خزنة الجنة بقصائد نظمها فى مدحهم .

وكذلك الأمر فى الجحيم : « بشار » قد أعطى عينين بعد الكمة ، وابن القارح يسأل خزنة النار عن مهلهل ، فيعرفه بأنه الذى يستشهد النحويون بقوله كذا وقوله كذا ! والحوار مع شعراء النار ـ والشيخ لم يلق غيرهم ـ فى الشعر واللغة والرواية والانتحال ، وهو يواسيهم فى عذابهم ويحزن لبلواهم ويصغى الى شكواهم ، دون أن يجردهم من عواطف بشريتهم ، بل أن سمح لأوس بن حجر أن ينفس عن كربه بمثل قوله ، حين سألة الشيخ عن أبيات تروى له وللنابغة :

« قد بلغنى أن نابغة بنى ذبيان فى الجنة فسأله عما بدا لك فلعله يخبرك ، فانه أجدر بأن يعى هذه الأشياء ، فأما أنا فقد ذهلت : نار توقد وبنان يعقد ، اذا غلب على الظمأ رفع لى شىء كالنهر ، فاذا اغترفت منه لأشرب ، وجدته سعيرا مضطرما ، ولقد دخل الجنة من هو شر منى ، ولكن المغفرة أرزاق كأنها النشب فى الدار العاجلة ! » .

(٧)

وأبو العلاء فى تصوير عالمه الآخر ، متأثر دون ريب ، بما فى البيئة الاسلامية من وصف للحياة الأخرى ونخص بالذكر : الجنة والنار فى القرآن الكريم ، والمرويات

الاسلامية عن الثواب والعقاب والشفاعة ، فى كتب الحديث والتفسير وقصة المعراج ، ثم ديوان الشعر العربى للجاهلية وصدر الاسلام ، بما فيه من وصف للمتع والملذات وفنون اللهو والطرب والمتعة ، نقلها أبو العلاء الى جنتى ، وكذلك الأساطير العربية التى عرفت فى البيئة الاسلامية ، عن أفاعيل الجن ومغامراتهم وشجر الحور .

لكن أبا العلاء ، صاغ عالمه الآخر صياغة فريدة لها طابعها المتميز ، فلم ينقل شيئا من هذه المرويات الا بعد أن ينفذ به الى أعماق وجدانه ، ويستجيب فيه لما تنفعل به نفسه من أشواق وهموم . وقد أضاف الى كل ما وعاه من مرويات عن الجنة والنار ، وأوصاف للملذات والعذاب ، مواد جديدة من صميم ذاتيته وأحلام يقظته ، فجاءت الصورة علائية أصيلة متميزة .

وفيها جديد من الفن الأدبى لم يعرفه النثر العربى قبل أبى العلاء الا فى محاولات جزئية قاصرة ، ولا أعنى بالجديد أن أبا العلاء تخيل عالما آخر نقل اليه دنياه كما أرادها وتمثلها ، وانما الجديد حقا هذا الاخراج التمثيلى الذى عرض فيه مشاهد عالمه الآخر ، على سبيل التشخيص الذى يشبه الفن المسرحى ، مع تقدير ما يفصلنا عن رسالة الغفران من قرون ذات عدد .

ومسرح الأحداث هو الجنة والمحشر والنار ٠ وابن القارح هو البطل الذى يربط هذه الأبعاد الثلاثة من أول العرض الى آخره ٠ والعرض يعتمد أساسا على الحركة والحوار ، وكثيرا ما تصحبه موسيقا تصويرية من الشعر المعبر عن المشهد المشخص أو المهد له : فمشهد الصيد مثلا يبدأ بانشاد قصيدة لعدى بن زيد فى رحلة صيد ، يعقبها انطلاق عدى وابن القارح على نجيبين من نجب الجنة ، الى حيث تبدو لهما خيطان النعام وأسراب الظباء ! وأبو ذؤيب الهذلى يرى فى الجنة وبين يديه ناقة عائذ مطفل يحتلبها ، ويخلط حليبها بماء الكوثر وعسل من خلايا الجوهر ، تشخيصا لقوله :

وان حديثا منك لو تعلمينه

جنى النحل فى ألبان عوذ مطافل

مطافيل أبكار حديث نتاجها

تشاب بماء مثل ماء المفاصل

وحين يشتهى ابن القارح الحور العين ، ممن انشأهن الله فى الجنة انشاء ، يسأل أحد الملائكة عنهن ، فيمضى به الى شجر الحور ، حيث يقطف احدى الثمار ويكسرها فتخرج منها حورية باهرة الجمال ٠٠ ثم يتغير المشهد فنراه يطلب اليها أن تتبعه ، ويمضى بها متخللا

هضاب الفردوس وكثبان الجنان ، فتقول له : أظنك تحتذى بى فعال الكندى فى قوله :

فقمت بها أمشى ، تجـر وراءنا

على اثرنـا أذيـال مرط مرحـل

الأبيات

ويعرض له حديث امرىء القيس فى « دارة جلجل » فينشىء الله جلت عظمته حورا عينا يسبحن فى نهر من أنهار الجنة ، وفيهن من تفضلهن كصاحبة امرىء القيس ٠ ويعقر لهن « ابن القارح » الراحلة ، فيأكل ويأكلن من لحمها ما يقصر الوصف عن بيان امتناعه ولذاذته !

والخنساء فى أطراف الجنة ، تنظـر الى أخيهـا صخر ، فاذا هو كالجبل الشامخ والنار تضطرم فى رأسه ، تجسيما لقولها فيه :

وان صـخرا لتأتم الهـداة به

كأنـه عـلم فى رأسـه نـار

وأبو العلاء فى هذا المجال التشخيصى التمثيلى مبتدع لا يجاريه أديب عربى آخر ، الى عصر شوقى ٠ ومن

الدارسين العرب (١٢) من يقرنون رسالة الغفران برسالة من عصرها هى « رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى » (١٣) دون أن يلحظوا هذا الفارق الجوهرى الذى يميز رسالة الغفران عن سواها .

أما القسم الثانى من الغفران ، فهو الذى ينطبق عليه قول القدامى : « رسالة اخوانية مطولة تجرى مجرى الكتب المصنفة » وتبدو فى هذا القسم شخصية أبى العلاء العالم اللغوى والناقد الأدبى والاجتماعى لعصره .

والواقع أن رسالة الغفران بقسميها ، تستطيع أن تقدم لنا قيما جديدة لتراثنا الأدبى ، لها ارتباط وثيق بما يشغلنا من قضايا أدبنا المعاصر :

ففى قضية عزلة الأديب ، أو ما يعرف فى عصرنا بالأبراج العاجية ، يصحح أبو العلاء فكرتنا عنها ، حين يقدم لنا فى آثاره ، نماذج أصيلة لأديب يعيش فى أبراج

---

(١٢) انظر : أحمد ضيف : بلاغة العرب فى الاندلس ص ٤٨ . زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع ص ٢٦٠ ـ وأنظر أيضا فصل « الغفران ورسالة التوابع والزوابع » فى كتاب « الغفران » لبنت الشاطىء ص ٢٩٤ : ٣١٠ ط ٢ المعارف بالقاهرة .

(١٣) نص الرسالة ، مع ترجمة ابن شهيد ، فى الجزء الأول من كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام ـ ط جامعة القاهرة .

من فولاذ ، لكنها لم تعزل وجدانه ولم تسدل الغطاء على بصيرته ، بل لعلها أعانته على الانصراف الى تأملاته وأتاحت له أن يجد نفسه ، وتؤكد رسالة الغفران ـ بخاصة فى القسم الثانى ـ انه البصير الذى حبر الدنيا كما لم يخبرها الغارقون لأذقانهم فى خضمها ، والمعتزل الذى خاض معركة الحياة كما لم يخضها الضاربون فى غمارها ·

ورحلته الى العالم الآخر ، تسجل صدى انفعاله بالدنيا وتجربه عزلته عنها ، وانسانية معاناته للحياة وبينه وبينها كثيف الحجب والأستار ، فما كانت رؤياه العجيبة الا انسحابا وجدانيا من دنيا لم يرض عن أوضاعها ·

والرسالة تؤصل فهمنا لحرية الأديب ، فهذا الرجل الذى اشترى حرية الضمير وشرف الكلمة وشجاعة الرأى ، بكل ما فى الدنيا ، يكشف لنا فى رسالة الغفران عن مجاهدته الطويلة القاسية لأشواق بشريته ، ويؤكد لنا أنه لم يسترح قط من حب الدنيا ، ولا نفض يديه منها ووطئها بقدميه ـ كما وهم واهمون ـ فى اللحظة التى قرر فيها الانسحاب الى محبسه · فلقد أملى رسالة الغفران وهو فى الستين من عمره ، بعد أن أمضى فى عزلته ما يقرب من ربع قرن ، فكشف الحجاب عن كل ما كان يعانى ويكابد ،

ثم كانت ذروة المأساة ، حين فرغ من نفض أشواقه وهمومه ، وارتد من رؤى يقظته الى واقعه المر الأليم ، فسجل فى القسم الثانى من الرسالة اعترافه الرهيب المؤثر : « قد كدت ألحق برهط العدم ، من غير الأسف ولا الندم ، ولكنما أرهب قدومى على الجبار » .

كما سجل فى « الفصول والغايات » ـ وهى أيضا من آثار الشطر الثانى من حياته ـ تفكيره فى الانتحار ، وحدد طريقته فقال :

« لو أمنت التبعة ، لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب ... لكنما أرهب غوائل السبيل » .

لم يكن أبو العلاء اذن راضيا عن بلواه ، ولا فرض على نفسه الحرمان عن تقلسف أو زهد فى الدنيا وبغض لها ، وانما أصر فى بسالة تقرب من الاستشهاد ، على المقاومة والمجاهدة ، ليشترى كرامته . وأصدر على بشريته أقسى قرار بالحرمان ، ليستطيع أن يقول كلمة الحق فى دنيا أذل الحرص فيها أعناق الرجال .

وهذه هى رسالة الغفران بين أيدينا ، تشهد بما ظل يكابد فى نضاله ليروض بشريته على الحرمان ، وتعلن صيحة الاحتجاج على المنافقين والمرائين والنفعيين ، ممن

استغلوا جهل العوام ، وجعلوا الدين والعلم والأدب ، مصيدة لرزق غير حلال .

* * *

وبعد فاذا كان نشر نص الغفران محققا ، مع رسالة ابن القارح ، قد أتاح لنا أن نفك عنها ما وصفه الواصفون بالطلاسم والأرصاد ، فالواقع أن الغفران ما تزال ذخيرة خصبة من تراثنا ، لم نظفر بعد بكل كنوزها ، ولم نجتل كل أسرارها الفنية .

ولست أرتاب فى أن دراسة جديدة لهـا ، سوف تضىء لنا من تاريخنا الأدبى ما لا نزال نجهل ، وسوف تفتح أمامنا آفاقا رحبة لم نشارفها فى دراسة سابقة .